﴿سورة العلق﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: ما دلالة أن تكون سورة العلق أول ماتزل من القرآن الكريم ؟

والجواب: إن الثابت عند أهل التفسير أن سورة العلق أول ما نزل من القرآن، ومطلعها ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)**﴾ فهى أول ما لامس قلب رسول الله ﷺ من وحى السماء ، ولعل فى ذلك بعض الإشارات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

إن فى هذه البداية دليل على أن القرآن الكريم ليس من تأليف محمد ﷺ إذ لا يُعقل أن يكون أول ما ينطق به رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب أن يقول لأتباعه: ﴿**اقْرَأْ**﴾، فكان هذا دليل على أن هذا القرآن من أول وحيه وبدايته إلى نهاية عهده ومنتهاه إنما هو من عند الله ﷻ لا من تأليف محمد .

كما يدل على أهمية العلم والقراءة والكتابة فى حياة المسلم وأن طلب العلم وإجادة تحصيله بحسن الخط وإتقان القراءة وجودة الكتابة هو مطلب شرعى حثنا عليه ديننا ودلنا عليه كتاب ربنا ﷻ من أول نزوله .

ثم تأمل ارتباط العلم بالإيمان فى قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)**﴾ حيث يرشدنا ربنا إلى أن العلم بدون إيمان أوارتباط بنور النبوة ومنهج الإيمان إنما هو خراب ودمار للبشرية، وما نراه اليوم من ممارسات غيرإنسانية فى مجال العلم وهذه الاستخدامات غير الأخلاقية التى أدت إلى اختلاط الأنساب وإزهاق الأرواح وضياع الممتلكات إنما هو نتاج العلم بدون إيمان، كما أن الإيمان بدون علم هو إساءة إلى المجتمع المؤمن الذى ينتسب إلى دين جعل العلم عنواناً له، فى رسالة إلى أتباعه إلى الحرص على العلم والتمسك بحبال المعرفة والتسلح بالقراءة والكتابة فهما بعد الإيمان ببسم الله ومنهجه وشريعته ضمان لتقدم الأمة ودوام سيادتها .

المسألة الثانية: ما دلالة قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ ؟ وما علاقتها بما بعدها ؟

والجواب: إن الله ﷻ الذى خلق الإنسان ويعلم ما فى نفسه يُخبر عن صفة فى هذا المخلوقألا وهى الطغيان أى مجاوزة الحد فى الكِبر والبطر إذا رأى فى نفسه الغنى وشعر باستغنائه عن غيره، عندئذ تتعاظم نفسه ويتيه على الناس كِبراً وإعجاباً بنفسه ، قال ابن عاشور: (أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه) [١]، وقد أوضحت هذه الآية حقيقة نفسية فى أغلب بنى آدم ألا وهى الطغيان فى حال أن رأى نفسه مستغنياً عن غيره، وغيره محتاج إليه، والمعصوم من عصمه الله ﷻ .

ولذا جاءت الآية التى تليها : ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)**﴾ وكأنها تنبيه لهذا الغافل المغرور بأن نهايته المحتومة هى الموت ثم الرجوع إلى ربه الذى أغناه ومن كل خير أعطاه، وما كان هذا من الرب القوى القهار إلا اختبار للعبد الضعيف المحتاج الذى طغى بعطاء ربه وإنعامه عليه، وما شعر بعوزه وحاجته وأن ستر الله ﷻ له ممدود وعطاءه له غير محدود، فغرَّه طول الأمل واستغنى بكثرة المال عن ربه الكريم وتكبر على إخوانه من بنى آدم .

(كما أن فيها معنى آخر وهو أن استغناءه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله تعالى في أهم أموره ولا يدري ماذا يصيره إليه ربه من العواقب) [٢] .

المسألة الثالثة: ما قصة هذه الآيات:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)﴾ ؟

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٩٢
(٢) المرجع السابق، ٣٠ /٣٩٢

والجواب: إن هذه الآيات نزلت فى واقعة معينة ذكرتها كتب التفاسير ألا وهى ما كان بين عدو الله أبى جهل – لعنه الله – ورسول الله ﷺ فإن عدو الله أراد منع رسول الله ﷺ من الصلاة فى المسجد الحرام وقال فيما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: (قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته، ولأعفرَن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، وعزمليطأ على رقبته، فما فَجَأَهُمْ منه إلا وهو ينكُص على عقبيه، ويتَّقي بيديه، قال فقيل له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا، قال: فأنزل الله هذه الآيات) [1].

فخاطبه الله ﷻ بهذه الآيات، أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمداً على هذه الصفة من الهدى والأمر بالتقوى والإيمان، أمثل هذا يُمنع عن الصلاة والسجود لله ﷻ فلا يَمنع مثل هذا العبد التقى من السجود والصلاة إلا مكذب للحق معرض عن طريق الهداية والرشاد، (فما أعجب هذا ! ثم يقول: ويله ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى، أي يراه ويعلم فعله، فهو تقرير وتوبيخ) [2] .

المسألة الرابعة: بم توعد الله تعالى عدوه "أبا جهل" فى هذه السورة؟

الجواب: إن الله ﷻ توعد عدوه أبا جهل وكل من يسير على منهجه الضال المنحرف فى معاداة الأنبياء والرسل ومحاربة الأولياء والصالحين – فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب – كما هو مقرر عند أهل التفسير– فتوعده الله ﷻ بقوله: ﴿**كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)**﴾، ولا بد أولاً أن نتوقف عند معانى الألفاظ التى وردت فى الآيات الكريمات :

(١) صحيح مسلم ، ٨ /١٣٠، ورقمه ٧٢٤٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/٢٠

فى قوله تعالى: ﴿ **لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ (١٥)**﴾ السفع كما يقول أهل اللغة: سفعت بالشئ: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً، وقيل: هو مأخوذ من سفعته النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد، أما الناصية فهى شعر مقدمة الرأس، والعرب تعبر عن كرامة الإنسان وحريته بالناصية، فكان العبد عندهم يؤخذ بناصيته وتجز إيذاناً بعبوديته وإعلاناً عن استرقاقه، ومن ذلك قول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم * وكانوا يظنّون أنْ لن تُجَزَّا**

فتوعده الله ﷻ بالعذاب المهين يوم القيامة حيث ستجذبه ملائكة النار من ناصيته وتلطمه على وجهه وتدفعه دونما شفقة أو رحمة ليُلقى فى النار ذليلاً مهاناً ، وإنما يستحق ذلك فناصيته كاذبة خاطئة، والمعنى أنه كذاب فى قوله خاطئ فى فعله ومعتقده، وقد تُذكرالناصية ويرادبها الدلالة على جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة، إشارة إلى أن هذا الإنسان مبارك. ثم قال ربنا: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَه (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)**﴾، لأن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً، فأنزل الله ﷻ الآية ومعناها: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَه**﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدى فيه القوم أي يجتمعون، فإن فعل ذلك فسندع الزبانية، والزبانية مأخوذة من الزبن وهو الدفع بشدة قال ابن منظور فى اللسان: (والزَّبانِية الذين يَزْبِنون الناسَ أَي يدفعونهم، قال قتادة الزَّبانِية عند العرب الشُّرَطُ وكله من الدَّفْع وسُمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أَهل النار إليها، قال الفراء يقول الله ﷻ: ﴿**سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)**﴾، وهم يعملون بالأَيْدي والأَرجل فهم أَقوى، قال الكسائي: واحد الزَّبانية زِبْنيٌّ، وقال الزجاج: الزَّبانية الغلاظ الشداد واحدهم زِبْنية وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿**مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ**﴾، وهم الزَّبانية)[1].

(١) لسان العرب ١٩٤/١٣

المسألة الخامسة: ماذا يُفهم من قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ ؟

والجواب: المتدبر فى هذه الآية الكريمة يخرج منها بعدة فوائد:

الأولى: الارتباط بين أولها وآخرها فعدم طاعة المؤمن لأصحاب الفجور ومخالفة أرباب البدع والمعاصى سبيل القرب من رب العالمين، ألم تلحظ أمر الله ﷻ لكل مؤمن – متمثلاً فى شخص نبيه ﷺ بألا يطيع من يأمره بترك الطاعة والعبادة ، فإنه إن فعل ذلك نال القرب والرضا من رب العالمين، ويؤكد هذا أنه من طلب رضا الناس بسخط الله ﷻ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن طلب رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضا عنه الناس .

الثانية: إن العبد يستعين على هجران أهل المعاصى وأعداء الدين باللجوء إلى الله ﷻ والإكثار من الصلاة والسجود حتى يثبته الله ﷻ على دينه وألا يُفتن بكثرة الدعاة إلى الفتن، فالثبات من الله ﷻ وليس بقوة إيمان العبد، وصدق الله ﷻ حين قال: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤)**﴾[١]، ولذا كان أكثر دعائه ﷺ (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) [٢] .

الثالثة: أن السجود سبيل القُرب، فكلما ازداد سجودك ازداد قربك، ولذا لما سأل أحد الصحابة الرسول ﷺ أن يكون رفيقه فى الجنة، قال له : (فأعنى على نفسك بكثرة السجود) [٣]، وعلمنا نبينا ﷺ أن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، ولذا فمن العجب أن يتسرع المصلى فى رفع رأسه من السجود فإنه إن فعل فإنما يحرم نفسه من أُنس القرب وروعة المناجاة ولذة الوقوف بباب من بيده مفاتيح الفَرَج .

---

(١) سورة الإسراء / الآيتان ٧٣– ٧٤
(٢) الأدب المفرد ، ١ / ٢٣٧ ، ورقمه ٦٨٣ .
(٣) صحيح مسلم ، ٢ / ٥٢ ، ورقمه ١١٢٢ .